قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا لرسوله أن آية رحمة عظيمة قد ظهرت للكافرين على شكل القرآن الكريم، ولكنهم إذا أصرّوا على رؤية آية العذاب فقل لهم يكفي الله ﷻ شاهدًا بيني وبينكم، وسيُريكم آية العذاب أيضًا، فيهلك الكاذب وينتصر الصادق. والآية المميِّزة التي تظهر من عند الله تعالى لا تكون باطلة أبدًا، لأنه تعالى يعلم كل ما في السماوات والأرض؛ فلن يهلك بعذابه إلا الذين يؤمنون بالباطل ويكفرون بآياته.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٤﴾

التفسير: أي يطالبك هؤلاء بنزول العذاب فورًا، ولكن الله تعالى بطيء في العذاب، ولولا أنه قد جعل للعذاب أجلاً مسمى لحل بهم العذاب فورًا. فليعلموا أن العذاب سيأتيهم ولكنه سيأتي بغتة من حيث لا يشعرون. ومثاله فتح مكة، حيث وصل النبي ﷺ بجيشه على أبوابها وهم لا يشعرون. ورد في التاريخ أن جيش المسلمين لما بلغ قريبًا من مكة ليلاً أشعل كل مسلم النار لإعداد الطعام بأمر من النبي ﷺ. وكان أبو سفيان يقوم بحراسة مكة مع بعض أصحابه، فلما رأى هذه النيران المشتعلة عن بُعد خاف وقال لأصحابه: من هؤلاء القوم؟ فقيل له: لعلهم بنو خزاعة الذين جاؤوا للانتقام؟ فقال: لا تبلغ خزاعة عُشر هؤلاء القوم. فذُكرتْ له قبيلة أخرى، فقال: إنها أقل عددًا من هؤلاء. فلم يزل أصحابه يذكرون له أسماء

مختلف القبائل فكان يرفض رأيهم في كل مرة، حتى قالوا: إنه محمد (ﷺ) مع جيشه. فقال: كلا، فإني تركتهم في المدينة جالسين مطمئنين غير متأهبين للقتال. وبينما هم في ذلك حتى اقترب منهم بعض المسلمين الذين كانوا يحرسون الجيش المسلم، وسمعوا صوت أبي سفيان. وكان من بينهم العباس ﷺ عمّ الرسول ﷺ والصديق الحميم لأبي سفيان، وكان العباس على بغلة الرسول ﷺ. فلما سمع صوته ناداه قائلاً: أبا سفيان؟ فقال: أين أنت يا عباس؟ قال: إن محمدًا رسول الله ﷺ قد جاء بجيش قوامه عشرة آلاف جندي، فاركبْ ورائي لتذهب إليه ﷺ وتناشده الله تعالى أن يعفو عنك وقومك وإلا لحلّ بكم الدمار. ثم جذبه وأركبه وراءه على البغلة وأتى به الرسولَ ﷺ. (تاريخ الخميس: غزوة فتح مكة، والسيرة النبوية لابن هشام: قصة إسلام أبي سفيان على يد العباس)

إذًا، فقد فتحت مكة بغتةً بحيث لم يشعر الكافرون بما حدث، حتى نزل بساحتهم جيش المسلمين.

يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٥﴾

التفسير: أي يطالبك هؤلاء القوم بنزول العذاب بدون تأخير، ولكنهم لا يدرون أن العذاب إذا جاء فسوف يحيط بكل من يكفر بالإسلام.

لقد ذكر القرآن هنا مطالبتين بالعذاب من قِبل الكفار، مما يدلّ بوضوح أن المطالبة الأولى تتعلق بالعذاب في الدنيا، والمطالبة الثانية تتعلق بالعذاب في الآخرة. فقالوا أوّلاً لماذا لا ينزل بنا العذاب في الدنيا كما حذرتنا؟ ثم قالوا: لماذا لا نهلك لندخل الجحيم نتيجة معارضتنا إياك؟ ومن أجل ذلك تجد ذكر جهنم في هذه الآية، ولا تجد ذكرها في الآية السابقة.

يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٦﴾

التفسير: المراد من غشيان العذاب إياهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم أن رؤساء مكة سيتخلّون عن أهلها، ومثاله ما فعله عمرو بن العاص وخالد بن الوليد، كما أن عامة الناس سيتركون رؤساءهم، فيقال لهم ذوقوا الآن جزاء أعمالكم.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ فَوقِهِمْ﴾ يشير إلى كل عذاب من السماء أو هجوم من الخارج، أو كل عقاب من قبل الحكومة أو سخط من قبل المسؤولين وزعماء الدين، ووقوع أكابر العائلات في شتى المصائب والآلام. وأما قوله تعالى: ﴿وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ فيشمل كل عذاب من الأرض سواء كان من قِبل الخدم والموظفين أو المرؤوسين، كما يندرج فيه اندلاع الفتن والفساد وفشل التدابير.

يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٨﴾

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أن العذاب نازل على الكافرين لا محالة، ولكنهم مغرورون حاليًا بقوتهم وحزبهم ظانين أنهم قادرون على قمع المسلمين. فيا أيها المسلمون، إذا كان أهل بلدكم لا يريدون أن يدَعوكم تعيشون في أمان، فاخرجوا إلى بلاد أخرى، واذهبوا إلى كل مكان وأقيموا عبادة الله الأحد فيه. وإذا رأيتم أهل قرية يعيقون طريق الدعوة فلا تخافوا لأن أرض الله واسعة، فاخرجوا إلى المناطق الأخرى لنشر الدعوة، ولا تخشوْا معاداة الدنيا إذا قمتم بالدعوة، حتى ولو أصبحت حياتكم وأموالكم في خطر. فإلى متى ستَسلمون من الموت؟ فكل نفس ستذوق الموت وترجع إلى الله تعالى. فما الجدوى من موتكم جالسين عاطلين في بيوتكم؟ فاخرجوا وانتشروا في أنحاء العالم وانشروا فيه دعوة الإسلام والقرآن،

لأنكم إن متم أثناء هذا الجهاد يكون موتكم مباركًا جدًا وتنالون مرتبة الشهادة وترثون جنة الله.

الحق أن جميع الشعوب الفاتحة في تاريخ العالم قد تركت أوطانها أوّلاً، ثم حققت الانتصار. لقد ترك العرب وطنهم، وترك الأتراك أرضهم، وهاجر اليهود من ديارهم، وغادر الآريون بلادهم وانتشروا في أراض بعيدة، ولو لم يتركوا أوطانهم لم يحرزوا تلك الانتصارات والفتوحات و لم يرثوا بلادًا جديدة. فلا غرابة لو اضطر المسلمون لهجرة أوطانهم لنشر دين الله تعالى.

ولكن لا يغيبنّ عن البال أن الهجرة نوعان: قومية وفردية. لا شك أن هجرة بعض الأفراد ترفع مستوى القوم، ولكن الحياة القومية لا تُنال إلا إذا استعدّ كل فرد من القوم لترك وطنه إلى ديار أخرى في سبيل الله تعالى. وهذا ما تؤكد عليه الآية قيد التفسير، وهي نفس الحقيقة التي أُريتها في الرؤيا مرة. لقد رأيت أني قد خرجت من البيت بحثًا عن بيت آخر، فرأيت الأستاذ محمد إبراهيم الجموني واقفًا في الخارج ويأتيه الناس باحثين عن بيوت لهم. ويخيّل إليّ أن بعض الناس الذين عندهم بيوت خالية قد سلّموه مفاتيحها ليؤجّرها للآخرين. فقلت له: أنا أيضًا بحاجة إلى بيت لنفسي. فأراني بيتًا فيه غرف صغيرة بدون سقف. ورأيت قطع قماش صغيرة معلّقة على جدران الغرف، فقلت له: ما هذه القطع؟ قال: إن الغرف بدون سقف فتوضع هذه القطع القماشية فوقها اتقاءَ الشمس. فأقول في نفسي لا شك أنها غرف صغيرة، ولكن غرف بيتنا أصغر منها. فأتذكر عندها البيوت الطينية التي كنا نقيم فيها في مدينة "ربوة" في أوائل عمرانها، ولكني أقول إن تلك الغرف كانت مضيئة أكثر. ثم أقول في نفسي: لقد كانت أكثر ضوءًا لأنها كانت مدهونة بالدهان الأحمر من الخارج وبالدهان الأبيض من الداخل. فسوف تصبح هذه الغرف أيضًا مضيئة عندما نقوم بدهانها. ثم سمعت مناديًا يقول:

"إن الأمة التي تكون مستعدّة للهجرة وتوّاقةً للاستيطان في الأراضي الأخرى لا تهلك أبدًا."

فلما سمعت قوله قلت في نفسي: ليس المراد من كونهم مستعدين للهجرة أنهم يفرحون بالهجرة أو أنهم يرغبون فيها. فخطر ببالي في الرؤيا أن الصحابة – رضوان الله عليهم – أيضًا هاجروا، ولكن قد ورد في الحديث أن بعضهم كانوا يذكرون مكة ويبكون بعد مجيئهم إلى المدينة (البخاري: كتاب المرضى، باب عيادة النساء الرجالَ). فأقول في الرؤيا جوابًا للمنادي:

"إنهم يهاجرون مضطرين، ولكنهم يرضون بقضاء الله بعد الهجرة، مما يدلّ أنهم كانوا مستعدين لها. فليس المراد من كونهم مستعدين أنهم يرغبون في الهجرة، بل المعنى أنهم إذا اضطروا للهجرة يرضون بقضاء الله ويسعون جاهدين للاستيطان في الأرض الجديدة".

انظر إلى النحل كيف أنها لا تبرح تنتِج العسل مع أن الإنسان لا يسمح لها بأكله. إنه يطرد النحل من خليتها بالدخان أو الماء الساخن أو بطريقة أخرى، ثم يجمع العسل الذي أنتجته في حوالي ستة أشهر. فلا تلبث النحل بعد هجرتها من خليتها أن تجد مكانًا آخر وتنهمك في صنع الخلية. ولو رأيتها بعد ساعة لوجدتها تعمل جاهدة لصنع العسل هناك مرة أخرى. وتتعرض النحل لهذا الطرد والنهب سنوات متتالية في بعض الأحيان كما يحصل مع نحل المزارع حيث يأخذ النحّال كل العسل الذي تنتجه في كل مرة دون أن تأكل منه شيئًا. فإذا كانت النحل لا تزال تنتِج العسل الذي يأخذه الناس لشفاء أمراضهم لقوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾(النحل:٧٠)، ومع ذلك لا تتوقف عن إنتاجه؛ فهل الإنسان ضعيف لدرجة أنه ييأس بسرعة؟ فالذي يفقد الهمة إذا ما فشل في جهده فهو ليس بإنسان، بل هو أدنى من النحل.

إن فتح العالم ليس بشيء هيّن. إنه يتطلب تضحيات جسيمة. وهذا ما فعل الرسول ﷺ أيضًا، فإنه لما رأى أن عيش المسلمين في مكة أصبح مستحيلاً جمَع أصحابه وأمرهم بالهجرة إلى بلد آخر لا يُضطهدون فيه بسبب دينهم ويذكرون اسم الله تعالى بأمان. فقال الصحابة: يا رسول الله، ما هو ذلك البلد؟ فأشار إلى

الحبشة وقال: هناك ملكٌ مسيحي، فاذهبوا إلى بلده حيث لن تتعرضوا للتعذيب بسبب دينكم. (السيرة النبوية لابن هشام: ذكر الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة)

فمن واجب المؤمنين أن يظلّوا مستعدّين لترك أوطانهم دائمًا في سبيل الله تعالى، ثم يعملوا بعد الهجرة جاهدين لعمران الأراضي الجديدة روحانيًا ليصبحوا أُمّة، فلا يُدخِلوا شخصًا أو شخصين بل يدخلوا أُمّة كاملة في الإسلام وفي غلمان محمد ﷺ.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٩﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٦٠﴾

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أن الذين يؤمنون بمحمد ﷺ بصدق القلب ويعملون أعمالاً صالحة لنشر الإسلام – أي أنهم يتركون أوطانهم أو يضحّون بأنفسهم في سبيل الله تعالى إذا اقتضى الأمر – نقسم بذاتنا أننا سنرفع درجاتهم في الدنيا والآخرة مثلما حاولوا إعلاء كلمة الإسلام والقرآن، ونبوّئهم أطيب المساكن. ولن تكون هذه العزة التي نكتبها لهم مؤقتةً فانية كالعزة الدنيوية، بل ستبقى لمدة غير معلومة. ولا جرم أن الذين يضحّون في سبيل الله تعالى لا يَضيعون أبدًا.

لقد أخبر الله هنا أن أهل الجنة يعطَون غرفًا تجري من تحتها الأنهار، بينما وصف الجنة نفسها بقوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾(البقرة:٢٦).. أي أن الأنهار ستجري تحت بساتينها، وفي موضع ثالث وصف المؤمنين: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾(الأعراف:٤٤). والسؤال الذي يفرض نفسه هنا ما هذه الأنهار التي تجري تحت البساتين وتحت الغرف وتحت الناس أيضًا؟ والظاهر أنها ليست أنهاراً معروفة، وإنما يراد بها شيء آخر أُطلق عليه لفظ "النهر" استعارة.

وعندما نتدبر القرآن الكريم لمعرفة خصوصيات الماء نعلم أنه قد ذكر له ميزتين: أولاهما: أنه يطهر الجسم من الوسخ والنجاسة، لقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾ (الفرقان:٤٩)؛ وثانيتهما: أنه سبب الحياة لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾(الأنبياء:٣١). وعليه فالمراد من قوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أن أهل الجنة سيجدون فيها أسباب الطهارة والحياة الخالدة بكثرة، لأن الله تعالى لم يذكر هنا الماء فقط، بل استعمل لفظ ﴿الأنهار﴾.

والغريب أن القرآن الكريم قد وصف الحياة في الجنة بميزتين بارزتين أيضًا، أولاهما: الحياة الخالدة التي ستوهب لأهلها وبساتينها وغرفها أيضًا؛ فقال الله تعالى عن خلود أهل الجنة: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾(النساء:١٢٣)؛ وقال عن دوام بساتين الجنة: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾(الرعد:٢٤)، وقال أيضًا: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾(الرعد:٣٦)؛ وقال عن دوام غرف الجنة: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ﴾(الزمر:٢١). ذلك لأن لفظ ﴿مَبْنِيَّةٌ﴾ يمكن أن يُفسَّر بمعنى دائمة، وإلا فكل غرفة تكون مبنية، ومثاله قولهم الشجرة متأصّلة بالأرض.. أي ثابتة قوية مع أن أصول كل شجرة تكون في الأرض. إذًا، فإن القرآن الكريم قد بيّن أن هذه الأشياء الثلاثة تكون ثابتة دائمة، فلن تتهدم مساكن الجنة ولن تخرّب بساتينها ولن يهلك سكانها. ومن ناحية أخرى أخبر أن الأنهار ستجري تحت هذه الأشياء الثلاثة، ومعناه – على ضوء قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ – أن الله تعالى سيهيئ أسبابا كثيرة تحول دون خراب بساتين الجنة وانهدام مساكنها وهلاك سكانها.

والخصوصية الثانية للماء أنه يزيل الوسخ والدرن، وقد وُصفت الجنة أيضًا بهذا الوصف حيث قال الله تعالى إن المؤمنين: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا تَأْثِيمًا ۞ إِلا قِيلاً سَلامًا سَلامًا﴾(الواقعة:٢٦-٢٧).. أي يصونهم الله تعالى من كل دنس روحاني. كذلك ورد في الحديث أن النبي ﷺ سُئل إذا كان الإنسان سيأكل في الجنة أفلا يبول ويتغوّط؟ فقال ﷺ: سيتحول طعامه وشرابه ريحًا كريح المسك (البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء: باب خلق آدم). والبديهي أن بساتين الجنة ما دامت محفوظة من

الخراب وخالية من البول والبراز فلا بد أن تبقى نظيفة طاهرة، وكذلك غرفها لأن الساكنين فيها ما داموا طاهرين فلا بد من طهارة الغرف أيضًا.

إذًا، فثبت من القرآن الكريم معنى الطهارة والدوام للماء، وهذا هو المعنى لقوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أيضًا، وإلا فلا معنى لجريان الأنهار تحت الناس والغرف، إلا أن نقول أن المراد أن هذه الأنهار تكون تحت قبضتهم وتصرفهم؛ ولكن في هذه الحالة ما كان هناك داع لوصف هذه الأشياء الثلاثة بجريان الأنهار تحتها وصفًا منفصلاً؟

ثم قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.. أي أنهم ينالون هذا الجزاء الحسن لأنهم، رغم تعرُّضهم لأنواع المصائب وعداء الأعداء، ظلّوا متمسّكين بعقائدهم بقوة متوكلين على ربهم بصدق.

وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾

التفسير: ومن الأمور التي تزلزل قدم الإنسان الضعيف وتمنعه عن القفز في نيران التضحيات الخوف من المشاكل المالية. إنه يرى الدنيا، من جهة، ماثلةً أمامه بكل جمالها وزخارفها، ومن جهة أخرى يناديه الدين للنصرة. إنه ينظر إلى الدنيا فيراها متبرجة بزينتها وبهائها ومالها وثرائها، وعندما يلتفت إلى الدين لا يسمع من قِبله شيئًا من خشخشة الدنانير، فيصاب قلبه بالهول ويقول كيف أنذر حياتي في سبيل الله تعالى؟ لو نذرتها في سبيله سنموت جوعًا، فمن أين يأكل أهلي وأولادي، وكيف سنحافظ على مستوى معيشتنا؟ فإذا صرعه هذا الطمع حُرم من خدمة دين الله تعالى.

ولذلك يقول الله تعالى للناس هنا كيف تسيئون الظن برب السماوات والأرض وقد جعلكم أشرف المخلوقات؟ أأنتم ترزقون دواب الأرض ووحوش الغاب

وطيور الجو أم الله يرزقها؟ لو فكرتم في نظام الرزق لبلايين البلايين من الحيوانات والدواب والحشرات في الكون لأصابتكم الدهشة والذهول وانفتح عليكم باب جديد للعلم والمعرفة. لقد أحرز الإنسان تقدمًا علميًا هائلا، ولكنه لم يعرف حتى الآن كيف يتيسر الرزق لهذه الحيوانات التي لا تُعد ولا تحصى؟ هناك نظام ظاهري لرزقها حيث يخلق الله في الزرع غلالاً للإنسان ويخلق معها تبنًا للحيوانات؛ وإذا كانت الإبل تعيش على الأشجار والأعشاب الشائكة فإن الأغنام قد تأكل النجاسة؛ ولكن من ذا الذي يرزق بلايين البلايين من الحيوانات التي تعيش في أعماق البحار ومياه الأنهار وظلام المغارات وفي قمم الأشجار وأجواء السماء؟ ومن يمدّ بالرزق تلك الجراثيم التي توجد في كل قطرة من الدم والتي لا تُرى إلا بالمجهر؟ هل هناك مؤسسة أو لجنة أو حكومة تحدد لرزقها ميزانية وتوزع عليها النقود؟ إنما الله الذي يدير هذا النظام الهائل لرزق هذه الحيوانات التي تبلغ بلايين البلايين. فما أشد الإنسان غباءً حيث يقول إذا دُعي لتكريس حياته لخدمة دين الله تعالى: أريد أن أكرس حياتي ولكنني إذا وقفت حياتي فمن أين آكل؟ فيقول الله له: ما دمتُ أرزق هذا الكم الهائل من المخلوقات في الكون، فهل أدَعك تموت جوعًا إذا لبّيت ندائي؟ فلا تظن بي ظن السوء، فإن ربك سميع عليم. لو دعوتَه بصدق القلب لاستجاب لدعائك ولأخرجك من كل مأزق لأنه يعلم أحوالك. فلا تعِشْ في الوساوس، بل تَقدَّمْ لخدمة دينه غير خائف ولا هيّاب.

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾

التفسير: بعد الحديث عن العقبات التي تعترض طريق إشاعة الإسلام عاد الكلام ثانيةً إلى المناظرات الدينية التي سبق ذكرها في الآيات السابقة، حيث أخبر الله تعالى المسلمين أنكم حين تخرجون من أوطانكم إلى بلاد أخرى لإشاعة الإسلام والقرآن في الدنيا باذلين أنفسكم وأموالكم بصبر وثبات متوكلين على الله تعالى

فستواجهون أولاً الشعوب التي تنكر وحدانية الله تعالى بطريق أو بآخر، فاسألوهم خلال المناظرات: من خلق السماوات والأرض، ومن سخّر الشمس والقمر لخدمة الإنسان بدون مقابل؟ فلن يكون جوابهم إلا قولهم: إن الله خالقُ الكون والمتصرفُ فيه. فقولوا لهم: ما دام الله تعالى هو خالق هذا الكون الهائل والمتصرفُ في كل ما فيه، فلماذا تتركون الله تعالى وتتوجهون إلى الآلهة الباطلة على غير هدى؟

كما بين في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أنكم عندما تبلغون رسالة الإسلام والقرآن إلى الأمم التي تنكر وحدانية الله تعالى فسوف تزدريكم مغرورة بقوتها وكثرة وسائلها وتقول لكم: لن تتغلبوا علينا، إنما تحلمون بالمستحيل مثل الملك "كينيوت" (Canute) الذي أراد دفع البحر إلى الوراء. كان كينيوت أحد الملوك الإنجليز، وقد كتب الله له العظمة والغلبة. كان ذات يوم جالسًا على شاطئ البحر، فقال له حاشيته على سبيل التملق: البر والبحر كلاهما تابعان لحُكمك. وكان كينيوت ملكًا حكيمًا، فقرّب كرسيه من البحر وجلس عليه؛ وكان الوقت وقت المدّ حين يصعد ماء البحر ويغطي اليابسة مسافة ميل أحيانًا، فأخذت الأمواج ترتفع حول كرسيه. فتظاهر بالغضب وأمر الأمواج بالتراجع متظاهرًا بالغضب، ولكن الماء لم يزل يتصاعد حتى خاف حاشيته على أنفسهم، فقام الملك من كرسيه وخرج إلى البر وقال لهم: انظروا كم أنتم كذابون![◈] فكما أن البحر كان لا ينسحب بأمر الملك كينيوت رغم غلبته واقتداره، كذلك سيبدو لكم تحويل الأوروبيين إلى مسلمين كمسلمي آسيا أمرًا مستحيلاً، ولكن الله تعالى يأمركم أن تسألوهم: من خلق السماوات والأرض؟ ومن سخّر الشمس والقمر والنجوم بحيث إنها لا تزال تعمل باستمرار منذ ملايين السنين دون أن يحدث في نظام السماوات والأرض خللٌ أو عطل؟ فلن يكون جوابهم إلا قولهم إن الله هو الذي خلقها وسخّرها؟ فقولوا لهم: إن الله الذي ثبّت هذه النجوم والكواكب الهائلة في السماء بدون أي أعمدة ظاهرة ليس بحاجة إلى أسباب مادية إذا

◈ (http://www.viking.no/e/people/e-knud.htm , http://www.zyra.org.uk/canute.htm) (المترجم)

أراد أن يجعل قومًا غالبين في العالم، بل إنه يجعل الغالب مغلوبًا والمفتوح فاتحًا من خلال أسباب خفية لا تراها عيون البشر. لا شك أن الإسلام اليوم في حالة مماثلة حيث يبدو سقفه بدون أعمدة وأرضه قاحلة جرداء، ولكن العاقل الذي يتفكر في خلق السماوات والأرض لا يمكن أن يفوته أن القوة كلها بيد الله، وأنه يجعل من يشاء غالبًا بدون أسباب مادية أيضًا. يُعتبر "تاين بي" اليوم أكبر مؤرخ، بل يرى البعض أنه بدرجة المؤرخ "غبن" أو هو أفضل منه وأنه لم يكن في الدنيا مؤرخ مثله من قبل. وقد كتب "تاين بي" في تاريخه أن الانقلاب الذي يحصل في الدنيا إنما يحصل نتيجة المبادئ الأخلاقية. والذين يظنون أن الانقلاب يحصل نتيجة امتلاك القوة فهم على خطأ. ويضيف هذا المؤرخ ويقول: ستتم الآن المواجهة بين المسيحية والإسلام كما تدل عليه الآثار، وأرى أن الأحمديين من بين المسلمين هم القادرون على خوض الحرب القادمة بين الديانتين. ونتيجة الصدام بينهما ستقرِّر ما إذا كانت الحضارة في القرون القادمة ستتأسس على مبادئ الإسلام أم على مبادئ المسيحية. ثم يضرب هذا المؤرخ مثالاً فيقول: إننا أمة مغرمة بسباق الخيل وتقام عندنا هذه السباقات بكثرة ونعلَم أن الحصان الذي يكون في الخلف يفوز بقصب السباق في أحيان كثيرة. فلا تغترّوا بضعف الأحمديين الآن، فلربما سبَق الحصان الذي يكون في الوراء غيرَه. تجدونهم اليوم ضعفاء، ولكني أرى فيهم قوة كامنة للتقدم والغلبة، مما يدل أنهم سيصطدمون بالمسيحية في يوم من الأيام ولربما يكون الفوز حليفهم.

فترى أن هذا الشخص الكبير الذي يقال عنه أكبر مؤرخ في العالم لم يجد بدًّا من الاعتراف بأن في الأحمدية قوة كامنة، وهي التي ستصطدم بالمسيحية، وقد تكون هي الغالبة. قد استعمل تعبير "وقد تكون هي الغالبة" لأنه من معارضي الإسلام، فما كان ليقول: "ستكون هي الغالبة حتمًا". ولكن الله تعالى يخبر أن غلبة الإسلام على المسيحية أمرٌ أكيد، وسيبدّل الله السماء والأرض بغيرهما، ويقيم في العالم نظامًا روحانيًا جديدًا.

ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٦٢﴾

التفسير: لقد حذّر الله هنا أعداء الإسلام بألا يفرحوا بمتاع الدنيا ومُلكها، فإن كل ما أحرزوا من رقي وتقدم هو في قبضة الله القادر على جعل الضعفاء أقوياء والفقراء أثرياء والملوك متسولين. لا شك أنهم يجدون الإسلام اليوم دينًا ضعيفًا فيزدرون أتباعه ويحتقرونهم، ولكن الله تعالى سينزع منهم هذه النعم ويهبها لأتباع محمد ﷺ، وهكذا يضيّق عليهم رزقهم ويبسطه على المسلمين ليبدّل ضيقهم رخاءً. لقد حصل هذا في الماضي وسيحصل اليوم أيضًا. سيحيا الإسلام، وسيتقدم أتباع محمد ﷺ، وستُهزم أوروبا وأمريكا رغم تقدُّمها ورقيّها.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فبيّن فيه أنه يعلَم أن المسلمين مزودون بطاقات الحياة وأن الكفر يلتقط أنفاسه الأخيرة، وما دامت أمارات الرقي بادية في فريق وآثار الانحطاط ظاهرة في آخر، فكيف لا يكون المسلمون غالبين والكافرون مغلوبين؟

وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٣﴾

التفسير: لقد بين الله هنا للمسلمين أن الأمم التي ستتم المواجهة بينها وبينكم ستكون منكرة للوحي والإلهام، فاسألوهم من الذي يُنزل من السماء ماء ويحيي به الأرض؟ فيجيبون: الله. فقولوا: الحمد لله الذي أحيا الأرض بماء السماء دائمًا، والذي قد لبى الآن نداء الإنسانية فأرسل محمدًا لخلاصها. أفليس مما يوجب الشكر

أن الله تعالى أتى بشمس جديدة لتُشرق الأرض بضيائها، وأرسل سحابًا عظيمًا من رحمته لإحياء الدنيا ثانية، فأمطر مطرًا غزيرًا حتى ارتوى العالم العطشان، وأخذت الأرض تخرِج خضرتها؟ لقد كان حريًّا بهم عند رؤية هذه المنة الإلهية العظيمة أن يسارعوا إلى محمد ﷺ ويصدقوه وينتفعوا من هذا المطر السماوي ويملأوا به بِركهم وحياضهم. ولكنهم لم يعملوا بتعقّل حيث تهافتوا على جيفة الدنيا وأعرضوا عن هذه الثروة الروحانية مغترّين بمتع الدنيا وأموالها، فكان مثلهم كمثل الذي يحتفظ بالأحجار الرديئة ويرمي بالجواهر الغالية.

كما قد نبه الله تعالى الكافرين بمثال نزول المطر من السماء أنه إذا نزل المطر أخرجت الأرض نباتها، ولكن هذا النبات لا يكون من نوع واحد، بل منه عشب وكلأ لا يطول أكثر من نصف بوصة أو بوصة، ومنه ما ينمو وينمو حتى يصبح دوحة كبيرة فيستريح مئات الناس بظلها. ومنه ما يهيج ويخضرّ شهرًا أو شهرين ثم يصفرّ ويذبل ويموت. ومنه ما يكون شجرة صغيرة في أول الأمر ثم يصبح شجرة كبيرة تعيش قرونًا، ومنه ما يكون زهرة تذبل وتجف بعد يوم أو يومين، ومنه أيضًا شجرة العنب التي تعيش ألف سنة أيضًا، ومنها شجرة تين البنغال التي تعيش مئات السنين. فبرغم أن هذه النباتات تستوي في بدايتها تمامًا إلا أن نهايتها تكون مختلفة تمامًا. وبالمثل إذا نزل المطر الروحاني من السماء تُخرج أرض الكفر نباتها كما تخرج أرض الإيمان نباتها، ولكن نبات الكفر يبقى مخضرًا نضرًا أيامًا معدودة ثم يذبل ويجفّ ليصبح حطامًا، أما نبات الإيمان فيصبح شجرة ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾.

فالله تعالى قد نبه الكافرين هنا أن الصحوة غير العادية التي حصلت فيهم وفيمن لفّ لفيفهم لدى دعوى محمد إنما هي نتيجة لذلك المطر الروحاني الذي أنزلناه من عندنا، ذلك لأن المطر كما يؤدي إلى نماء الثمار المفيدة كالعنب والمانجو كذلك يؤدي إلى نماء الأعشاب الرديئة كالحنظل والعلقم، فلا تظنوا أنكم ستنجحون في مسعاكم ضد محمد؛ لأن مثلكم كمثل الكلأ والعشب الذي يخضر ثم يصفر وينتن حتى يتغير لونه تمامًا ويتسبب في تفشي كثير من الأمراض والأوبئة. ففكّروا في هذه

الظاهرة الطبيعية وسارِعوا إلى الإيمان بمحمد ﷺ لتكونوا أشجارًا مثمرة تنفع الإنسانية، بدلاً من أن تكونوا أشجار رديئة كالزقّوم والحنظل والعلقم.

وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾

التفسير: لقد عقد الله تعالى هنا مقارنة بين حياة الدنيا وحياة الآخرة لينبّه منكري الإسلام أن التدبر سيكشف لهم أن هذه الدنيا ليست إلا لهوًا ولعبًا.. أي أنه لو تم تقسيم مشاغل الحياة الدنيا لعُدَّ بعضها لهوًا وبعضها لعبًا. والمراد من ﴿لَهْو﴾ ما يؤدي إلى الغفلة، والمراد من ﴿لَعِب﴾ ما يؤدي إلى الحركة والنشاط. والحقيقة أن الحياة الإنسانية عبارة عن هذين الأمرين.. أي أنها حركة وسكون يتناوب بعضه بعضًا، وكلاهما ضروري لإنعاش طاقات الإنسان واستمرار قدراته. وكأن اللعب هو فترة الحركة التي يعمل فيها الإنسان مستغلا ما فيه من قوة وطاقة، واللهو هو الفترة التي يركن فيها الإنسان للاستراحة والسكينة. وكل إنسان بحاجة إلى الحالتين لو كان ممن بلغ قمة الروحانية؛ ذلك لأن الحياة الإنسانية، من ناحية، قائمةٌ بالحركة سواءً بالمشي والسير أو الاشتغال بمختلف شؤون الحياة؛ ومن ناحية أخرى ليس للإنسان – أيًّا كان – غنى عن الراحة والسكينة، لأنه إذا لم يأخذ دماغه وأعصابه قسطًا من الراحة من خلال النوم والتمتع بالمناظر الخلابة والجو الجميل لم تستمر حياته أبدًا. باختصار إن حياة الإنسان في الدنيا قائمة باللهو واللعب، ولو أُخرِج هذان العنصران من حياته انتهت فورًا.

بيد أن الله تعالى أوضح أن الهدف من هذا اللهو واللعب أن نسعى من خلالهما لكسب حب الله ورضاه؛ وبعبارة أخرى علينا أن ندرك أن حياتنا في الدنيا إنما هي كاللهو واللعب مقارنةً بهدفها الذي هو الحياة الآخرة، فكما أن اللعب ضروري للطالب كذلك لا بد لكم من مشاغل الحياة الدنيا، لأن الإسلام لا يعلِّم أتباعه –

كالديانة البوذية – أن يتركوا مشاغل الدنيا ويعبدوا الله تعالى ليل نهار منعزلين عن الدنيا (Buddhism: p.40)، بل يرى الإسلام أن اللهو واللعب ضروري للإنسان لأنه لو استولى عليه خوف الآخرة في كل حين لهلَك. إلا أن انشغال الإنسان باللهو واللعب في كل وقت أيضًا يدمِّر غاية خلقه شأن الطالب الذي يقضى كل وقته في اللعب واللهو فيفشل في دراسته، ولا يستحسن فعله أحد. إذًا، فإن الإسلام يبيح لنا الاستمتاع بمتع الدنيا، ولكنه لا يريد أن نستغرق في مشاغل الدنيا ولذاتها و نهمل الآخرة.

باختصار، قد نبه الله تعالى معارضي الإسلام بقوله: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أنه قد جعل حياة الدنيا سلّمًا لحياة الآخرة، وأراد أن تكون حياة الدنيا بالنسبة لكم كاللعب للطالب، ولكنكم جعلتموها منتهى إرَبكم نتيجة غبائكم، فكرّستم جهودكم كلها من أجل متعها وملذاتها، مع أن ﴿الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾.. أي أنها هي الحياة الحقيقية. علمًا أن لفظ ﴿الحَيَوان﴾ قد ورد هنا بمعنى الحياة على سبيل المبالغة كقولهم زيدٌ عدلٌ.. أي أنه شديد التمسك بالعدل بحيث يجوز القول إنه عدل مجسد. فالله تعالى يقول لا شك أن لكم حياةً في هذه الدنيا إلا أن الإنسان سينال الحياة الحقيقية في الدار الآخرة، لذا فلو قلنا إن الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية فهو الصواب بعينه.

يظن البعض أن هذه الآية جاءت ذمًّا وانتقاصًا للحياة الدنيا، ولكنه ظن خاطئ، ذلك لأن الله بنفسه قد خلق هذه الحياة الدنيا ووهبها للأنبياء والأولياء والصلحاء كلهم، فكيف تكون عبثًا وبلا جدوى؟ لقد قال الله تعالى في القرآن الكريم مرة بعد أخرى أتظنون أننا خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا تُرجَعون؟ كما بين أنه خلق السماوات والأرض لحِكَمٍ عظيمة، فكيف يكون خلق الإنسان الذي هو جزء من خلق الكون نفسه عبثًا بلا فائدة؟ لو كانت هذه الحياة عبثًا لما عدّد الله على الإنسان نعمه مرة بعد أخرى، ولما قال له: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى:١٢).. أي عليك أن تتحدث عن نعم الله وتشكره عليها. فثبت أن الله تعالى لا يقصد بقوله: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ ذَمَّ الحياة الدنيا، بل

اعتبرها جزءًا هامًا من الحياة الأخرى ودرجةً أولى من السُّلّم الذي إذا لم يضع عليه الإنسان قدمه لم تنشأ في روحه تلك القوى التي سيعيش بها في الحياة الآخرة.

كما أن الله تعالى قد لقّن المؤمنين درسًا رائعًا للتوكل حين اعتبر الحياة الدنيا لعبًا ولهوًا، فبيّن لهم أن هذه الحياة الدنيا ومتعها إنما هي مجرد لعبة وتفرُّج، فلو أصبح المرء ملكًا أو فقيرًا أثناء لعبة لم يؤثر هذا في قلبه شيئًا، فلا يتكبر لأنه ملك ولا يبكي لأنه فقير، كذلك يرى المؤمن أن حياته الحقيقية إنما هي في الدار الآخرة عند الله، أما حياته في الدنيا فإنما هي مجرد لعبة، وبسبب هذه الرؤية لا يستحوذ على المؤمن حبُّ المال ولو اقتنى الملايين، ولا يشكو ربَّه ولو تعرض للجوع والفاقة. أما الكافر فيعتبر الدنيا منتهى غايته، فلو وجد الملايين أصبح دودة للدنيا، ولو حُرِمها مات كمدًا، ولا يبرح يشكو الله تعالى، وهذا يعني أنه لا يرضى برضا الله في أي حال. عندما ينال مالاً أو عقارًا يعتبره نتيجة جهده وذكائه بدلاً من أن يرتفع بصره إلى الله تعالى شكرًا وامتنانًا، ولو حُرِم من مال أخذ في شكوى الله تعالى واعتبره ظالمًا والعياذ بالله. باختصار إن الكافر لا يطمئن في حال أبدًا، أما المؤمن فيتمتع بسكينة القلب في كل حال، ويرضى بقضاء الله دائمًا. وحيث إن الله تعالى قد خاطب الكفار في الآيات السابقة، فنبّههم في هذه الآية أنهم لو فهموا أن الله تعالى قد جعل حياة الدنيا تمهيدًا لحياة الآخرة، وأنها مجرّد لهو ولعب، لأعرضوا عن الدنيا ودخلوا في طاعة محمد، مدركين أن الرقي المادي لا يساوي شيئًا أمام الرقي الروحاني، ولكنهم قد آثروا الحياة الدنيا على الحياة الآخرة، ورفضوا الثروة السماوية نظير دراهم معدودة زائفة.

فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٦﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾

التفسير:

لقد بين الله تعالى هنا أن الناس ينغمسون في متع الدنيا وملذاتها، ولكن تحدث في حياتهم أحداث ووقائع تدفعهم إلى التوجه إلى الله تعالى، ولكن الإنسان السيئ الحظ ينسى الله تعالى دائمًا بعد أن ينجيه من هذه المصائب، وتتكرر هذه العملية هكذا.

الواقع أننا لو تعمقنا في الأمر أدركنا أن الإنسان يتمكن أحيانًا من سدّ حاجاته كلها بنفسه، فينصبّ اهتمامه على قوته وقدرته فقط، فيصيبه الغرور بجهوده. ولكنه في بعض الأحيان لا يقدر على سد حاجته بنفسه، بل يحتاج إلى أقاربه وأعزّته الذين يساعدونه، فيقول في نفسه إن القرابة شيء نافع. ثم يأتي عليه وقت لا يغني عنه أهله وأقاربه فينظر إلى أصدقائه ومعارفه، فيأتون لمساعدته، فيدرك أهمية الأحباب والأصدقاء في الوقت الحرج. ثم يأتي عليه وقت لا يغني عنه أصدقاؤه أيضًا، بل يساعده الحزب أو الجماعة أو النظام الذي ينتمي إليه، فيدرك أهمية النظام والحزب والجماعة، فيزداد تمسكًا به. ثم يأتي عليه وقت لا يغني عنه أهله ولا أقاربه ولا أحبابه ولا حزبه ولا جماعته، فيتوجه إلى الحكومة التي تساعده، فيدرك أهمية الحكومة ومنافعها. ثم يأتي عليه وقت لا تقدر الحكومة أيضًا على مساعدته، بل تتقدم الإنسانية العامة لمواساته، فينظر إلى الإنسانية جمعاء ويقول في نفسه ما أروع هذه العلاقة التي خلقها الله تعالى بين الناس جميعًا. ولكن يأتي عليه وقت حرج آخر حين لا ينفعه أهل ولا أصدقاء ولا أحباب، ولا قبيلة ولا نظام ولا حكومة ولا الإنسانية كلها؛ فإذا تخلص من مأزقه ونجح في مرامه أيقن أن في نجاحه يدًا إلهية

وتأييدا ربانيًّا أيضًا، فيعزو نجاحه إلى الله تعالى بقدر إيمانه بتدخل يد الغيب في نجاحه. ولكن الحقيقة أن كل ما أنجزه بنفسه أو بمساعدة أقاربه وأصدقائه أو حزبه ونظامه أو قومه وحكومته أو الإنسانية العامة، إنما أنجزه الله له. ولكن حيث إن الأسباب الظاهرة لعبت دورها في شتى نجاحاته فلم ينظر عندها إلى الله تعالى، وإنما فكّر في تأييد الله تعالى له عندما أيقن بتدخل يد الغيب في نجاحه.

باختصار يأتي في حياة الإنسان أوقات حين تبوء تدابيره كلها بالفشل الذريع فلا يجد أمامه إلا الله تعالى، وهذا هو المعنى الذي أكّده تعالى في الآية قيد التفسير، فبيّن أنه عندما يأتي الوقت الحرج فإن المشرك والملحد أيضًا يتوجهان إلى الله تعالى. وضرب لذلك مثالاً وقال حينما يحاصر الطوفان السفينةَ يستصرخ المشرك أيضًا اللهَ تعالى، موقنًا من كل قلبه ومشاعره ألا أحد يقدر على إنقاذه إلا الله تعالى.

كان في الكلية الطبية بلاهور طالب ملحد، وكان يناقش زملاءه دائمًا حول وجود البارئ تعالى. فلما وقع الزلزال الشهير عام ١٩٠٥م بحسب النبوءة التي أدلى بها المسيح الموعود عليه السلام، وأحسّ هذا الطالب الملحد بأن السقف على وشك السقوط هرب من الغرفة قائلاً: "رام رام".. أي الله الله. فقال له زملاؤه في اليوم التالي: لماذا جريت من الغرفة قائلا: "رام رام"؟ فقال: لا أدري، يبدو أنني فقدت عقلي عندها.

والواقع أنه عاد إلى صوابه عندها. لقد اختفت عن أنظاره الأسباب المادية التي يمكن أن تنقذه فلم يجد أمامه منقذًا إلا ذات البارئ تعالى. الحق أن الأسباب المادية البادية تشغل الإنسان عن الله تعالى، ولكن عندما لا يرى أي سبب ظاهر عندها فقط يرتفع بصره إلى الله. في عام ١٩١٨م استجمعت ألمانيا كل قواها وشنت هجومًا مكثفًا على الحلفاء. فجاء على القوات الإنجليزية وقت لم يعد هناك سبيل لنجاتها. لقد شقَّ الألمان صفوف الإنجليز على جبهة تبلغ سبعة أميال، فصارت القوات الإنجليزية جزئين، وكان بإمكان الألمان أن يتقدموا بهذه الثغرة ويحاصروا القوى الإنجليزية من ورائها ويدمروها تدميرًا. فأبلغ القائد الإنجليزي رئيسَ القوات بخطورة الموقف وقال ليس عندي جنود لسد هذه الثغرة. لقد كان الموقف خطيرًا

لدرجة أنهم خافوا أن يدمَّر جنودهم كلهم فلا يبقى هناك أثر لإنجلترا ولا فرنسا. فأرسل قائد الجيش الإنجليزي برقيةً إلى حكومته وأخبرها بتقوّض صفوفهم وبأن الدمار وشيك. وكان رئيس الوزراء في جلسة مع وزرائه عندما وصلته البرقية، فأدرك هذا الرجل – الذي كان مزهوًا بقوته ومنعته، وكان زعيمًا لأقوى وأكبر دولة مادية في أوروبا عابدةِ المادة الغافلةِ عن الله تعالى كليًّا – أنه ليس هناك الآن قوة ظاهرة في الدنيا تنجيه من هذا المأزق، فنظر إلى أصحابه وقال: تعالوا نبتهل إلى الله تعالى أن ينصرنا. فركع الجميع على ركبهم ودعوا الله تعالى، فاستجاب الله دعاءهم، ودبّر من الأسباب ما جعل جيش الألمان لا يعرفون أن صفوف عدوهم قد تقوّضت. فدعا قائد الجيش الإنجليزي أحد الضباط وقال له: إن الموقف حرج ولا أرى أحدًا سواك يقدر على احتوائه، فاذهب لمواجهة العدو بدون أن توجه إلي أي سؤال. وكان بوسع هذا الضابط أن يقول للقائد الأعلى: تأمرني بالتصدي للعدو ولا تعطيني أي جنود، ولكنه أدرك أنه من المستحيل الآن أن يؤتيه أي جنود، فركب سيارته وذهب إلى المكان الذي يعمل فيه الطهاة والغسالون والحذاؤون والخياطون، وقال لهم: لا شك أن في قلوبكم حسرة دائمة بأن تجدوا فرصة للقتال دفاعًا عن وطنكم. وها قد سنحت لكم هذه الفرصة. إن العدو قد شق صفوفنا، والوطن ينظر إليكم لتتقدموا وتسدّوا هذه الثغرة في الصفوف. فأخذ كل واحد منهم ما وقع في يده، ووصلوا إلى جبهة القتال وسدّوا الثغرة حيث بدا للرائي أنهم جنود. وظل هؤلاء متصدّين للعدو هناك أربعًا وعشرين ساعة حتى وصل المدد من المناطق الأخرى.

هذا المشهد مثال لما يفعله الملحدون الذين يعبدون المادة. فإنهم إذا لم يجدوا وليًا ولا نصيرًا سوى الله تعالى آمنوا به، ولكنهم ينسون الله تعالى عند زوال المصيبة، ويعزون نجاحهم إلى جهدهم وحنكتهم أو إلى آلهتهم. ويقول الله تعالى إلى متى سيفعلون هكذا؟ إننا نمهلهم ليتوبوا، فيزدادون انغماسًا في ملذات الدنيا. ولكن سيأتي يوم يُحرَمون فيه من هذه الفرص أيضًا، فلن ينصرهم أي إله زائف، ولن يجدوا من موجات العذاب العارمة مخلصًا.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٨﴾

التفسير: لقد قدّم الله تعالى من قبل شهادة الفطرة الإنسانية على وحدانيته، وبيّن أن المشركين يكفرون بالله تعالى ولكن عندما تحل بهم مصيبة تزول حُجب الجهل أو التعصب القومي عن عقولهم، فيخرون على عتبة الله تعالى، ويدعونه مخلصين له الدين. إن نداء فطرتهم هذا دليل أن قلوبهم تشعر بعظمة الله وكبريائه، وإلا لماذا تدفعهم فطرتهم عند حلول مصيبة إلى الاعتراف بوحدانية الله علنًا؟ أما الآن فقدم الله تعالى الكعبة المشرفة دليلاً على وحدانيته، وقال: ألم يرَ هؤلاء أن الناس من كل أنحاء الجزيرة العربية يتعرضون للنهب والسلب والقتل، ولا ضمان لحياتهم وكرامتهم وشرفهم، بينما لا يجرؤ أحد على أن يشير بالبنان إلى أهل مكة بسبب جوارهم لبيت الله الحرام؟ لماذا يتمتع أهل مكة بهذه النعمة العظيمة؟ أهذا راجع إلى كفاءتهم الشخصية، أم أنهم نالوا هذا الشرف نتيجة الأدعية التي قام بها إبراهيم عليه السلام عند رفع قواعد البيت الحرام حيث توسل إلى الله تعالى في تواضع وخشوع: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾(البقرة:١٢٧). وحيث إنهم قد نالوا هذا الأمان وهذا الرزق وهذه العزة والصيت بسبب دعاء إبراهيم، فعليهم أن يفكروا فيما إذا كان إبراهيم قد عمرَ بيت الله ليوضَع فيه ثلاث مئة وستون صنمًا أم ليُعبَد الله فيه وحده؟ هل عمرَه ليخرّ الناس أمام الأصنام المنحوتة من الحجر أم ليضعوا جباههم على أعتاب رب العالمين تحقيقًا لأمر الله تعالى لإبراهيم وإسماعيل: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾(البقرة:١٢٦). وحيث إن هذا البيت لم يُعمَر إلا ليكون مركزًا لعبادة الإله الأحد، ولم يتمتع أهل مكة بهذا الشرف العظيم بين العرب كلهم إلا نتيجة دعاء إبراهيم ولكونهم سدنة بيت الله، أفليس من المؤسف المخجل أن يضعوا نواصيهم الخاطئة أمام آلهة باطلة ويؤكدوا بأعمالهم على أسوأ أنواع نكران الجميل، مع أنهم

يرون بأُمّ أعينهم هذه الآية الإلهية العظيمة، ومع أن كل حجر في البيت الحرام يوجّههم إلى عبادة الله وحده.

لقد بيّنتُ هذا المعنى نظرًا إلى أهل مكة، ولكن لو نظرنا إلى هذه الآية من منظور آخر لوجدنا أن الله تعالى قد اعتبر البيت الحرام الذي هو مركز التوحيد وسيلةً عظيمة لإرساء السلام في العالم، فبين أن الدنيا لن تتمتع بالسلام الحقيقي إلا إذا ارتبطت بمركز وحدانية الله.

يوجد اليوم في الدنيا أديان كثيرة جدًا، ويوجد في أحكامها اختلاف كبير، ثم يوجد في أفكار أتباع هذه الديانات اختلاف كبير بحيث يبدو اتحادهم واتفاقهم ضربًا من المستحيل. هناك شيء واحد يمكن أن تتحد عليه الأديان كلها وهو وحدانية الله تعالى. فكما أن اختلاف الإخوة الأشقّاء فيما بينهم ممكن ولكن اختلافهم على أبيهم محال، كذلك مهما اختلفت الأديان فيما بينها إلا أنه لا يمكن أن يختلف أي منها في وحدانية الله تعالى، وهذه العقيدة هي الوسيلة الوحيدة القوية التي تؤدي إلى المؤاخاة الحقيقية بين البشر. فما لم يفكر الجميع أن الإنسانية كلها من خلق ربه، وأن الله الذي خلقني هو الذي خلقهم لن تزول مشاعر الاحتقار والعداء من القلوب. وهذا هو الأمر الذي قد ركز عليه الإسلام قبل كل شيء آخر لإرساء السلام العالمي، فأقام توحيد البارئ تعالى في العالم ورسّخ في القلوب أن رب الإسلام هو رب العالمين.. أي أنه رب المسلمين تمامًا كما هو رب الهندوس والنصارى واليهود والزرادشتيين وغيرهم. ولو فكر المسلم الصادق أن المسيحي أو اليهودي أيضًا عبد لربي كأي مسلم لما حمل في قلبه بغضًا نحو هندوسي أو مسيحي أو يهودي أو زرادشتي، بل اعتبر الجميع إخوانًا له، ومدَّ إليهم يد المحبة كما يمدها إلى أخيه المسلم.

إذًا، لقد علّم الإسلام درس التوحيد لإرساء السلام العالمي، ثم ربط المسلمين ببيت الله تعالى ليبقى هذا الدرس راسخًا في أذهانهم دائمًا. ذلك لأن القرآن الكريم يقول: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾(آل عمران:٩٧).. أي أن أول بيت بُنِيَ لفائدة الإنسانية جمعاء هو ذلك الذي بمكة. ومن البديهي أن الأديان التي لم

تتجاوز نظرتها وراء الحدود القومية كان محالاً عليها بناء بيت يكون نقطة مركزية لاتحاد الإنسانية كلها، إنما كان بناء مثل هذا البيت ممكنًا فقط بناءً على وحي الله تعالى ومشيئته، فوضع الله تعالى أساس الكعبة المشرفة لجمع الإنسانية كلها على مركز واحد، وتمّ تجديد بناء هذا البيت على يد إبراهيم عليه السلام الذي أعلن في الدنيا لأول مرة أن هذا البيت المقدس قد بُني ليزوره الناس ويطوفوا به ويعبدوا الله فيه ويذكروه، وينذروا حياتهم لخدمة الدين.

إلى هذه المنة العظيمة قد لفت الله تعالى الأنظار في الآية قيد التفسير، فقال ألا يفكّر الناس كيف دبّرنا لإرساء السلام العالمي من خلال هذا البيت تدبيرًا رائعًا، وكيف جمعنا العربي والأعجمي، والشرقي والغربي، والأبيض والأسود، والأحمر والأصفر كلهم على مركز واحد؟ وكيف أعطينا للذين ينتمون لهذا البيت منهجًا داعيًا إلى السلام، فمن عمل به لم يُحرَم السلام هو ولا من هو على صلة به. وليس هذا فحسب بل لا ينتمي إلى هذا البيت حقًّا عند الإسلام إلا من سلِم الناس كلهم من شرّ يده ولسانه. وهذا يعني أن الله تعالى لم يفتح من خلال بيت الله مدرسة للسلام فحسب، بل كل أولئك الذين يتعلمون فيها يصبحون دعاة السلام العالمي؛ إذ لا يظلمون أحدًا، ولا يغضبون على أحد بغير حق، ولا يصرعهم الجشع، لأن هذه هي المساوئ التي تدمر السلام العالمي. ثم إنهم ينعمون باطمئنان القلب نتيجة تعلُّقهم الصادق بالله تعالى، بينما تحترق باقي الدنيا في نيران الطمع والجشع، فلا يجدون السكينة في قلوبهم، ولا يحظى بها من له صلة بهم أيضًا. وقد أشير إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾.. أي أن الذين ينتمون إلى بيت الله ينعمون بالسلام نتيجة العمل بتعليم الله الأحد، ولكن الشعوب التي تعيش حولهم محرومة من السلام لكفرها بأحكام الإسلام؛ حيث تندلع بينهم الحروب، وتقع فيهم صنوف النزاع والفساد وتتعرض أموالهم للسلب والنهب. باختصار لا يتمتع بالسلام إلا الذين آمنوا بالله الأحد وارتبطوا ببيته الحرام بصدق، أما سائر الدنيا فهي عرضة للفوضى، وكل قلب فريسة للقلق والاضطراب. فالله تعالى يقدم هذا الفارق الواضح بين الفريقين ويقول: ما دام هذا الانقلاب العظيم قد حصل

فعلاً من خلال بيت الله، فهل لا يزالون موقنين بنجاح خططهم الباطلة ناكرين للنعمة الإلهية العظيمة التي أنزلها الله من السماء لدفع قلقهم واضطرابهم. إذا كانوا يريدون إرساء السلام في العالم فعلاً فإنما سبيله أن يؤمنوا بالله الأحد وينضموا إلى جماعة الذين ينتمون إلى بيت الله، إذ إن إرساء السلام الحقيقي في العالم بدون إصلاح الروحانية محال.

تسعى الدنيا لإرساء السلام في العالم من خلال السلاح والقانون أو العقل، ولكن هذه الثلاثة غير كافية لإرساء السلام وإن كان كل واحد ضروريًا في حد ذاته. هذه العناصر الثلاثة غير قادرة على إرساء السلام العالمي إلا إذا كانت معها الروحانية. إن إرساء السلام في العالم بالسلاح محال لأن هذا يؤدي إلى سباق التسلح، حيث تعقد الشعوب الهدنة بعد الهدنة فيما بينها من ناحية، ومن ناحية أخرى لا تزال تجمع الأسلحة. فكما أن الشخص الثري لا يمكن أن يسافر بدون أن تكون محفظته مليئة بينما يخرج الفقير للسفر بدون أية نقود، كذلك لا تزال الشعوب المتعطشة إلى الأسلحة منهمكة في جمعها رغم عدم حاجتها إليها، لأنها تخاف جيرانها فلا تطمئن إلا إذا جمعت عندها أسلحة كثيرة. ويفشل القانون في إرساء السلام أيضًا لأنه يحكم على الظاهر فقط دون الباطن. ويفشل العقل في إرساء السلام لأنه غير تابع للأخلاق. فإن الذي يفكر بالعقل فقط يعمل ما فيه مصلحته ومصلحة صاحبه، دون أن يفكر أن من الفوائد الظاهرة ما يؤدي إلى الضرر الروحاني أيضًا، وأن صداقة القريب قد تضر بالبعيد. ولكن الروحانية توجّه الإنسان إلى الخير دائمًا، لأنها اسم لصياغة المشاعر والعواطف في قالب الأخلاق، وإذا صيغت المشاعر في الأخلاق صحبها العقل أيضًا؛ فلا يزال المرء متمسكًا بالخير دائمًا، فلا يثنيه عنه طمع ولا إغراء ولا خوف.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾

التفسير: لقد زاد الله تعالى هنا لفظ ﴿كذبًا﴾ لأن من المفترين على الله من ينسب إليه تعالى ما يكون موجودًا في كتابه تعالى وإن لم يُوحِ به إليه هو، ومنهم من ينسب إلى الله تعالى ما لا أساس له مطلقًا في أي كتاب سماوي، فهذا الشخص يفتري ويكون أساس افترائه الكذب تمامًا.

لقد نبه الله تعالى في هذه الآية منكري الإسلام أن فيهم عيبين خطيرين جدًا، **أولهما** أنهم يفترون على الله تعالى ما ليس له أساس في أي وحي بل هو كذب صريح. فمثلاً يقولون: ﴿اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً﴾(الكهف:٥)، وهذا افتراء صريح أساسه الكذب؛ ومن أجل ذلك قال الله تعالى في القرآن الكريم مشيرًا إلى عقيدتهم هذه: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلا كَذِباً﴾(الكهف:٦)، وقال تعالى أيضًا: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾(الأعراف:٢٩)، وقال تعالى أيضًا: ﴿وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾(الأنعام:١٠١).. أي أنهم وصفوا لله شركاء من الجن مع أنه تعالى هو الذي خلقهم، واقترحوا له بنين وبناتٍ بدون علم مع أن الله تعالى منزه عن جميع هذه العيوب والنقائص وأسمى مما ينسبون إليه.

والعيب الثاني فيهم أنهم ينكرون هدى الله الذي يعرض عليهم. فيحذرهم الله تعالى أنهم إذا كانوا لا يخجلون من الافتراء على الله كذبًا ولا يقبلون الحق أيضًا، ومع ذلك يظنون أنهم سينجحون فلا شك أنهم مصابون بالوهم. إنما السبيل إلى النجاح إقامةُ صلة صادقة مع الله تعالى وقبول الهدي النازل منه. وحيث إن

المسلمين يتحلّون بهاتين الميزتين فسيصدر الله تعالى قراره في حق المسلمين وليس مصير الكفر إلا الفشل.

وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩

التفسير: بعد أن نبّأ الله تعالى عن فشل الكافرين وهلاك الكفر والشرك، أخبر الآن عن حسن عاقبة الذين صبروا في كل اختبار و لم تزلّ قدمهم بعد ثبوتها وظلوا يضحّون في سبيل الله ورسوله، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.. أي الذين يسعون جاهدين ويخرّون على أعتابنا دائمًا متفانين في حبنا للتقرب إلينا، سنكتب لهم النجاح تلو النجاح، ونهديهم إلى طرق لا نهاية لها من الرقي والعروج. وهذا يعني أن العدو إذا أغلق عليهم بابًا للرقي فتح الله عليهم مئة باب، وهكذا فإنهم لا يحققون أهدافهم المادية فحسب، بل يزدادون قربًا من الله تعالى باستمرار، وكل خطوة يتخذونها تزيدهم حظًا من بركات الله وأنواره.

لقد أعطى الله تعالى هنا الإنسانيةَ رسالة أمل تبعث الحياة في القلوب الميتة، وتحملهم من الفرش إلى العرش. الواقع أن فشل الإنسان راجع في كثير من الأحيان إلى قنوطه، حيث يظن أن لا فرصة له الآن للرقي، ولكن الله تعالى يعلن أن هذا خطأ، فإن الذين يجتهدون من أجل حبنا ووصالنا ندلهم دائمًا على طرق توصلهم إلينا؛ شريطة أن يجتهدوا بحسب الطرق التي وضعناها لذلك وليس بحسب المعايير التي اخترعوها من أنفسهم؛ وقد أُشير إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿فِينَا﴾.

كما أن هذه الآية لا تحمل في طياتها بشرى عظيمة للمسلمين فحسب، بل فيها رسالة حياة عظيمة لغيرهم أيضًا بمن فيهم الملحدون أيضًا؛ فهي توضح للملحدين أن رب الإسلام هو رب العالمين، وقد فتح أبواب محبته للناس جميعًا، فلا داعي ليأسهم. فإذا كانوا يبحثون عن الحق بصدق القلب، وإذا كانوا يريدون أن يعرفوا خالق هذا الكون – إن كان له خالق – ويتخلصوا من الوساوس والشبهات،

فسبيله أن يدعوا بصدق القلب قائلين: أيها الإله، إن كنت موجودًا وإن كنت ذا قدرة مطلقة كما يقول المؤمنون بك، فارحمنا واهدنا إليك، واعمر قلوبنا بالإيمان واليقين بك لكي لا نُحرَم من حبك. فلو قام الملحد بهذا الدعاء أربعين يومًا على الأقل بلا انقطاع، فلا بد أن يهديه الله رب العالمين إلى سبيله، أيًا كان بلده ومهما كان قلبه محجوبًا تحت الظلمات، وسيرى بدون انتظار كثير أن الله تعالى سيتجلى عليه بحيث تتبدد ظلمة الشكوك والشبهات عن قلبه كلية، وتخر روحه ساجدة على أعتاب الله تعالى.

ثم إن هذه الآية تحمل بشرى لأتباع الأديان الأخرى أيضًا، لأنهم إذا كانوا يبحثون عن الدين الحق فعلاً برؤية اختلاف الأديان فيما بينها، فعليهم بالدعاء والابتهال أمام الله تعالى، فسيهديهم يقينًا ويكشف عليهم سبيل الحق بطريق أو بآخر.

أتلقى الرسائل من غير الأحمديين في كل سنة بمعدل ثمانية أو عشرة رسائل سنويًا يقولون فيها: كنا من أشد معارضي الأحمدية، ولكن الله تعالى قد أخبرنا بالرؤية أن الأحمدية على الحق، فها نحن نتوب وننضم إلى الجماعة الإسلامية الأحمدية. إذًا، فالذي يرجع إلى الله تعالى بصدق فلا بد أن يهديه إلى الحق بطريق أو آخر، شريطة أن يكون جادًّا ولا يكون هدفه إلا الفوز برضا الله تعالى.

وكما قلت من قبل إن هذه الآية بشارة عظيمة للمؤمنين أيضًا أنهم لو اجتهدوا للتقرب إلى الله تعالى باستمرار وبصدق القلب فلا بد أن يهديهم إلى طرق لا تعد ولا تحصى من قربه، وسيعطيهم بغيتهم ويشرفهم بإلهامه وكلامه. وهناك رؤيا لي تشير إلى الأمر نفسه. لقد رأيت في المنام قبل فترة أن كثيرًا من الناس جالسون في مكان فأخاطبهم قائلا: سأبين لكم تصوُّر الإله كما تقدمه شتى الديانات. فألقيت خطابًا بينت فيه لهم تصور الديانة البوذية عن الله تعالى. ولما تدبرت في هذه الرؤيا في الصباح علمت أنني استخدمت ألفاظ "تصوُّر اللهِ" على سبيل الاختصار وإلا كان قصدي "تصوُّر وصالِ الله تعالى". وما قلت في خطابي أمامهم هو كالآتي:

"انظروا إلى السمكة فإنها تعيش في الماء ولكن أشعة الشمس التي تنعكس من الماء أو ذرات رمال النهر تؤثر في جسمها تأثيرًا حتى تؤدي إلى نشوء الحراشف فيه – وبالفعل ليست هذه الحراشف إلا نتيجة تأثير أشعة الشمس التي تنعكس عليها من الماء والرمال، فيصبح جسمها لامعًا، فلو كان الرمل ذهبيًا كانت الحراشف أيضًا ذهبيةً، وقد رأيت بنفسي أسماكًا ذات حراشف ذهبية؛ بل تكون بعضها ذات سبعة أو ثمانية ألوان، وبعضها تكون زرقاء تمامًا كأنها فيروزةٌ – ثم أقول في المنام لهؤلاء الجالسين: إذا كان الجسم الكثيف يقبل تأثير الأشياء الأخرى نتيجة اتصاله بها، فكيف لا تقبل الروح تأثيرها وهي شيء لطيف للغاية؟ ثم أبين لهم فضل الإسلام على الأديان الأخرى وأقول: خذوا مثلاً الديانة البوذية، فإنها تخبر أن وصال الله ممكن، ولكنها لا تدل على الطريق لذلك، أما الطريق الذي يذكره البوذيون فطويل جدًا ولا يمكن العمل به. يقولون أن بوذا ظل جالسًا تحت شجرة خيزران ستين سنة للتقرب إلى الله تعالى، واستغرق في عبادة الله وذكره لدرجة أن خيزرانة جديدة نبتت من تحته حتى بلغت قمة رأسه دون أن يشعر بذلك. ولا شك أنها خرافة لا يقبلها العقل. ولكن الإسلام لم يخبر أن وصال الله ممكن فحسب، بل دل أيضًا على طريقة إذا سلكها الإنسان وصل إلى الله تعالى. إن الديانة البوذية لا تركز على قبولية الدعاء مثلاً، بل تركز على "النروانا" فقط (Buddhism: p.40).. أي أن ينفض الإنسان من قلبه كل رغبة وأمنية.. مع أن حب قرب الله تعالى أيضًا رغبة، فإذا طرد المرء من قلبه كل رغبة فكيف تبقى فيه رغبة حب الله تعالى؟ فثبت أن الديانة البوذية تقول كلامًا متعارضًا. أما الإسلام فيعلن أن الإنسان ليس بحاجة إلى مجاهدات طويلة للوصال بالله تعالى، بل إذا كان يحب ربه فليدعُ ربه في ابتهال وخشوع بأن يرزقه قربه ويفتح عليه أبواب بركته، فسوف يشرفه الله تعالى بقربه يقينًا لأنه قد أعلن في القرآن الكريم: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾(البقرة:١٨٧). فشتان بين هذه الطريقة البسيطة بأن يدعو الإنسان ربه وسيحظى بقربه فورًا وبين ما ينسب إلى بوذا بأنه جلس تحت خيزرانة ستين عامًا حتى نبتت من تحته خيزرانة أخرى ووصلت إلى قمة رأسه.

باختصار قد جعل الله تعالى طريق وصاله سهلاً جدًا في الإسلام، ولو كان في قلب المرء شيء من حب الله لتشرف بوصاله يقينًا.

كذلك رأيت مرة في الرؤيا أني في مدينة "لكناء"، وجاء بعض رؤسائها للقائي وجلسوا في غرفة مفروشة بالسجاد. فسألني أحدهم: ما السبيل لبقاء الروح حيًّا؟ فقلت له في الجواب: هناك شيئان ينبضان بالحياة: الجسم والروح. عندما يكون الطفل صغيرًا لا يقدر على المشي ولا العمل بنفسه، فما هو الطريق الذي جعله الله لاستمرار حياته؟ إنما هو قوة البكاء التي خلقها الله فيه. ذلك أن أُمّه لا تبقى معه دائمًا، بل تظل مشغولة؛ حينًا في الطهي، وحينًا في غسل الأواني والثياب، وحينًا في الحديث مع صديقاتها، وحينًا تداعب زوجها؛ فإذا جاع الولد أو مرض أو أحسّ بخطر أخذ في البكاء والصراخ عاليًا فتأتي إليه أمه مسرعة. هذا هو الطريق الذي جعله الله تعالى لاستمرار حياة الجسم. وقد جعل الله تعالى طريقًا مماثلاً لاستمرار حياة الروح أيضًا. فعندما تصاب روح الإنسان بالضعف والكسل يخرّ ساجدًا أمام الله تعالى ويدعوه باكيًا كطفل صغير، فيأتي الله إليه مسرعًا ويسدّ حاجته. وبينما أقول ذلك أتحمس في خطابي فيرتفع صوتي وأرفع إصبعي ثم أضعه على السجاد وأقول: هكذا يضع طفل الروح الإنسانية رأسه على السجاد باكيًا، وتسقط دموعه عليه، فيأتيه الله لدفع أذاه هرولةً كما تهرول الأم إلى ولدها.

وباختصار إن البكاء والدمع هما اللذان يُنقذان جسم الإنسان، وهما اللذان ينقذان روحه أيضًا. وقد بين الله تعالى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أنه يجري إلى عبده ليجيب على حبه بحب كما تجري الأم الرءوم إلى ولدها عند سماع بكائه، وإذا حصل فتور في علاقة المحبة هذه فإنما يحصل من قِبَل العبد، أما الله تعالى فيريد أن يشمل عباده بحب أشد من حب الأم الرءوم. إنه تعالى يريد أن يعامل عبده بالحب واللطف، ويحمله في حضن محبته ويسلّيه، ولكن المشكلة أن العبد الضعيف الذي هو عرضة للمصائب ويرزح تحت الآلام والذي هو بحاجة إلى نصر الله وعونه دائمًا لينجيه من الآلام ويلهمه السكينة، أقول إن هذا العبد

الضعيف نفسه يُيدي استغناءً عن الله تعالى، أما الله المستغني فيضطرب على عرشه من أجل عبده لكي يأتي إليه ليشرِّفه بقربه.

كما أن هذه الآية إشارة إلى قبولية الدعاء أيضًا، حيث بيّن الله تعالى أن الذين يجتهدون لتحقيق مقاصدهم وفق مشيئتنا داعين إيانا مستعينين بنا، لا بد أن نفتح عليهم طرقًا لتحقيق أهدافهم، وسنمكّنهم مما يبدو مستحيلاً.

حُكي أن أحد الصلحاء أتاه بلاغ بأن قضية قد رُفعت ضده من قبل بعض الناس، وأن عليه المثول أمام الملك. فأخذته الحيرة لأنه كان يقضي كل وقته في ذكر الله تعالى، ولكن البلاغ كان من قبل الملك فخرج على حصانه للمثول أمام الملك. وبعد أن قطع مسافة عدة أميال جاءت عاصفة وأظلمت الأرض وغيّمت السماء، ونـــزل المطر غزيرًا. وكان عندها يمرّ في غابة لا يوجد فيها آثار العمران على مدى البصر إلا بضعة أكواخ، فذهب إلى كوخ ونادى للاستئذان. فسمع من داخل الكوخ صوتًا يقول: تفضل. فربط الحصان ودخل في الكوخ، فوجد فيه شخصًا معوقًا مستلقيًا على السرير. فرحب به صاحب الكوخ بحفاوة ودعاه للجلوس بجنبه وسأله عن اسمه وقصده. فأخبره الرجل الصالح أنه فلان ابن فلان وأنه ذاهب للمثول أمام الملك بعد أن تلقى منه بلاغًا، وأنه في حيرة من هذا البلاغ لأنه يعيش بعيدًا عن نـــزاعات الناس دائمًا. فلما سمع قصته قال: لا تخف، إذ لم يأتك البلاغ إلا لأن الله أراد أن تزورنا. إنني رجل معوق لا أقدر على الحراك وأظل مستلقيًا على السرير ليل نهار، وقد سمعت من أصدقائي عن صلاحك وحسن سيرتك، وكنت أدعو الله تعالى دائمًا قائلا: رب إن ذوي الحظ يزورون هذا الرجل الصالح، ولكني إنسان مسكين عاجز فكيف أصل إليه؟ فارزقني رؤيته كيفما شئت. وأرى أن الله تعالى أتى بك إلي من خلال هذا البلاغ. فلم يلبثا حتى سمعا من الخارج صوت إنسان يقول: المطر غزير، أمسموح لي دخول الكوخ؟ ثم دخل شخص وكان ساعي بريد ملَكي، فسألاه عن قصده فقال: لقد أمرني الملك بالذهاب إلى فلان من الصالحين لأبلغه أن الملك قد استدعاه إلى محكمته خطأ؛ الحق أن البلاغ كان موجهًا إلى شخص آخر ولكنه صدر باسمه لأن اسمهما واحد، فلا حاجة له

بالمثول أمام المحكمة. فتبسم صاحب الكوخ وقال للرجل الصالح: ألم أقل لك إن الله تعالى قد أتى بك هنا من أجلي فقط، أما البلاغ فهو مجرد وسيلة لمجيئك هنا.

فهذا ما يؤكده الله تعالى في قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

ثم إن هذا القول الرباني إشارة إلى أنه لا يكفي المرءَ قبول الإسلام وقوله باللسان إني مؤمن، بل إن سبل العلم والعرفان والقرب الإلهي لا تُفتح إلا على الذين في قلوبهم لوعة عارمة ورغبة صادقة، ويجتهدون للتقرب إليه بوَله وتفان؛ من أجل ذلك قد صرح الله تعالى هنا أنه يساعد الذين يسعون للتقرب إليه جاهدين، ولم يقل أبدًا أن الذين يفرّون منه فيأتي بهم إليه قسرًا، والذين يعرضون عنه فيؤيدهم بنصره، والذين يفضلون الجلوس نكرههم على القيام، والذين يريدون أن يسقطوا نرفعهم قسرًا، والذين يريدون أن يكفروا ندخلهم في المؤمنين جبرًا. كلا، بل يوضح الله تعالى في القرآن الكريم أن الذين يؤثرون الكفر نجعلهم كافرين، والذين يحبون الإيمان نجعلهم مؤمنين. وباختصار إن حياة الإنسان إنما تتلخص في أن يعقد العزم على التمسك بالخير بقوة كما يمسك الكلب المدرب صيده بأسنانه بقوة، حيث يمكن أن تنكسر أسنانه ولكن من المحال أن ينفلت منه صيده. عندما يسلك الإنسان طريق الحق بهذه النية والعزيمة ويتمسك بالخير بقوة فيمضي في الخيرات قدمًا، لأن كل حسنة ستدفعه إلى حسنات أخرى. فمن أخرج الصدقة بصدق القلب فلا بد أن يوفَّق للصلاة أيضًا، ومن أدّى الزكاة بصدق فلا بد أن يوفَّق للصوم أيضًا، ومن صام بإخلاص فلا بد أن يوفَّق للصلاة والزكاة والحج أيضًا؛ ذلك لأن كل حسنة توجّه الإنسان إلى حسنة أخرى، إذ كيف يمكن أن يواسي المرء الفقراء عطفًا عليهم ويطعمهم لوجه الله خالصًا وليس لمنفعة مادية، فيضع عنده بعض الفقراء ماله أمانةً، فيخون فيها؟ كلا إنه محال تمامًا. إن الذي يعطف على الآخرين لهذه الدرجة ويكون مستعدًا لتقديم أي تضحية لهم على الدوام كيف يمكن أن يخون أماناتهم؟ لو أن الناس كلهم قالوا إنه أكل مال الآخرين فنقول إنهم كاذبون، لأن الذي يحب أن يضحي بماله من أجل الآخرين لا يمكن أن يأكل مالهم أبدًا. كذلك كيف نصدق أن إنسانًا يصوم ويجوع لوجه الله تعالى ولكنه لا يريد

أن يصلّي من أجله؟ قد يترك الصلاة يومًا أو يومين أو ثلاثة أيام، ولكن ستلومه نفسه في النهاية بأنه إنسان أحمق حيث يجوع لوجه الله تعالى ولا يريد أن يعبده، فسوف يصلي في النهاية، وإذا بدأ الصلاة فلن يتركها أبدًا ولو أكرهه أحد على تركها. لو أُلقي في السجن فسيصلي في السجن أيضًا، ولو رُبط بسريره فسيصلي مستلقيًا، لأن الحسنة توفّق صاحبها للقيام بحسنة أخرى.

إذًا، فإن سرّ الرقي أن المرء إذا وجد الخير استمسك به بقوة. عليه أن يصمم في قلبه أولاً أنه سيختار الخير أينما كان ولن يتخلى عنه أبدًا، وبعد هذا القرار حيثما وجد الخير أخذه بقوة مصممًا على أنه لن يتركه مهما حدث. وإذا بلغ الإنسان هذا المقام استعد لأن يتعلم من أي شيء في الدنيا، فيتعلم من الطفل الصغير والشيخ الكبير ومن المجنون أيضًا. سئل الإمام أبو حنيفة – رحمه الله – ذات مرة: إنك إنسان عظيم ويتعلم منك الناس كلهم، فهل تلقّنت من أحد درسًا لم تَنْسَه؟ فقال: مرارًا، وإن أكبر درس تلقّنتُه في حياتي كان على يد طفل صغير. قيل: كيف؟ قال: كنت ذات يوم أمشي في المطر، فمرّ بي طفل مسرعًا عمره قرابة ثماني سنوات، فقلت له: أيها الطفل، امش بحذر كي لا تنـــزلق في الوحل. فنظر إلي وقال: أيها الإمام، لا تهتم بزلة قدمي وإنما عليك أن تهتم بنفسك لأنه لو زلّت قدمي فلن أسقط إلا أنا فقط، أما إذا زلّت قدمك لزلّت قدم العالم كله، لأن الإمام إذا أخطأ أخطأ الذين يتّبعونه أيضًا. ثم ذهب الطفل لسبيله، ولكني استمتعتُ بوعظه طويلاً. والحق أنني لم أسمع من أحد قط نصيحة أبلغ من هذه. (تذكرة الأولياء: الإمام أبو حنيفة ص ١٤٧)

فالواقع أن من أراد أن يتعلم فيتعلمُ من الطفل أيضًا، بل لو أراد أن يتعلم فعلاً واعتاد على التفكر والتدبر لأصبحت له أحجار الأرض وأشجار الجبال وأعشاب الغاب تفسيرًا للقرآن وشرحًا للحديث. وأما من لم يرد أن يفهم فلن ينفع مثلَ هذا الشقيّ القرآنُ ولا الحديثُ ولا محمدٌ رسول الله ﷺ.

ثم إن قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ وصفةٌ رائعة لاطمئنان القلب الذي تتلهف له اليوم الدنيا كلها، حيث تجد كل إنسان يقول: ما السبيل إلى السكينة والطمأنينة؟ الحق أن اطمئنان القلب لا يتيسر إلا بطريقين اثنين:

فإما أن يتحقق للمرء كل ما يتمناه، أو أن ينمحي من قلبه كل رغبة وأمنية تافهة، فتبقى فيه الأماني الجيدة التي يمكن تحقيقها أيضًا، ومن بلغ هذا المقام نعِم باطمئنان القلب. لقد أخبر الله تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم أنه لم يخلق الإنسان إلا أن يحاول الاتصاف بصفاته تعالى (البقرة:١٣٩)، وقد قال الله تعالى هنا أن الذين يجاهدون من أجل هذه الغاية بصدق النية نضمن لهم تحقيقها؛ وهذا يعني أن القرآن الكريم كفيل باطمئنان قلب الإنسان. فقد أمر الله تعالى في الآية الأولى أن يتذكر الإنسان دائمًا أنه قد خُلق في الدنيا لغاية عليا، وهي أن يحاول التحلي بصفات الله تعالى.. وبتعبير آخر أن يسعى ليكون مرآة ينعكس فيها وجه الله تعالى؛ أما في الآية الثانية التي هي قيد التفسير فوعد الله تعالى فيها أن مَن يسعى بصدق لتحقيق غاية خلقه لنجعلنّه من الفائزين. ذلك أن المرء لو أدرك أنه ليس بفانٍ كليةً بل إن جسمه فقط فانٍ أما روحه فهي باقية غير فانية، فتمتَّعَ بالأشياء الماديةً الفانية بحد معقول فقط لبقاء جسمه، وركّز اهتمامه على التحلي بالأخلاق التي هي غير فانية لبقاء روحه؛ حقق غاية خلقه بعون الله تعالى ونال اطمئنان القلب لأن رغبته وغايته قد تحققت. أما إذا ظل المرء يقفز كالقرد هنا وهناك باحثًا عن الملذات الفانية لإشباع أهواء جسمه الفاني متناسيًا روحه التي لا فناء لها، لتولدت فيه رغبات وأهواء كثيرة لن يقدر على تحقيقها كما لن يتيسر له عون الله تعالى في سبيل تحقيقها، فيزداد فشلاً في حياته وحرمانًا من سكينة القلب. لا جرم أن بعض الناس ينالون نصيبًا لا بأس به من التركيز الذهني (Concentration of mind)؛ حيث يضعون أمامهم هدفًا سياسيًا أو تعليميًا أو اجتماعيًا، ويحرزون شيئًا من النجاح أيضًا نتيجة جهودهم المضنية، وينالون اطمئنان القلب في الظاهر أيضًا، ولكن اطمئنانهم يماثل اطمئنان طفل تعطيه لعبةً لتلهيه بها، وليس سبب اطمئنانهم أنهم قد حققوا الغايات العليا بل لأنهم قد نسوها. إنهم يصابون بإدمان الأفيون الفكري. يتعاطى عقلهم الأفيون الفكري، فلا يحسّون بالألم رغم وجوده.

هذا، ويثير البعض اعتراضًا حول قوله تعالى: ﴿سُبُلَنا﴾ ويقول: لقد قال الله تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا

السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾(الأنعام:١٥٤)، وهذا يعني أن سبيل الله واحدة وأما الشيطان فله سبله الكثيرة، فكيف قال الله تعالى هنا ﴿سُبُلَنا﴾.. أي أن له ﷻ سبلاً كثيرة؟

فليكن معلومًا أنه ليس ثمة اختلاف حقيقي بين الآيتين، وإنما المراد من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾ أنه لا حاجة بالناس أن يتوجهوا إلى الأديان الأخرى الآن من أجل الوصول إلى الله تعالى، إنما الإسلام هو الدين الوحيد الذي يوصل الإنسان إلى ربه الآن. أما قوله تعالى: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ فيعني أن سبل الرقي الروحاني ومنازله لا تعد ولا تحصى، فبعد كل سبيل هناك سبيل أخرى، عندما يسلك المؤمنون سبيلاً توصلهم إلى الله تعالى يكشف تعالى لهم سبيلا أخرى من قربه، وعندما يسلكونها أيضًا يهيئ الله لهم فرصًا أخرى للرقي الروحاني، وهكذا يمضون قدمًا في مجال الخير والعرفان.

يقوم البعض باستدلال خاطئ من هذه الآية مفاده أن الإيمان بالرسول ﷺ والعمل بأحكامه ليس ضروريًا – والعياذ بالله – بل بوسع الهندوسي أو السيخي أو الزرادشتي وغيره أن ينال النجاة متبعًا دينه. وهذا خطأ، لأن الله تعالى قد صرح في القرآن الكريم: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾(آل عمران:٣٢).. أي يا محمد، قل للناس إن كنتم تريدون أن تحظوا بحب الله تعالى ورضاه فاتّبعوني، فيحبّكم الله تعالى أيضًا. فليس صحيحًا أبدًا أن الإنسان يمكن أن يحظى بقرب الله تعالى الآن بدون اتباع النبي ﷺ، وإنما تعني هذه الآية أن الإنسان إذا بحث عن الحق بصدق القلب دلّه الله تعالى على طريق الهدى، فيكشف عليه صدق الإسلام من خلال الرؤى والكشوف، أو يشرح صدره لحب الإسلام ومحمد ﷺ، فيؤمن به ويعمل بأحكامه وبالتالي يحظى بحب الله تعالى، أما بدون طاعة الرسول ﷺ وبدون العمل بأحكام الإسلام فالنجاة مستحيلة.

وقال الله تعالى في الأخير: ﴿وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾، فأشار بذلك مرة أخرى إلى الاختبارات والصعاب التي لا تزال هذه السورة تتحدث عنها منذ البداية، فأوضح تعالى أنكم لن تطبخوا الطعام بأنفاس، ولن تحفروا الجبل بغُصن، ولن تعبروا

النهر بقشّة، فإذا كنتم تريدون حب الله تعالى حقًّا فلا بدّ لكم من أن تظلوا ثابتين في كل اختبار، وتقفزوا في نيران التضحيات مرة بعد أخرى، وعندها سيكتب الله لكم الفوز في كل موطن، وسيُظهر لكم غيرةً تفوق غيرة الأُمّ لولدها. فلا بد لكم أن تؤمنوا بالله بصدق ولا تترددوا في تقديم أي تضحية في سبيل دينه.

والمحسن في العربية من يطيع الأمر بجميع شروطه. إذًا، فقد نبهنا الله بقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أن الذين يطيعون أوامرنا حق الطاعة.. أي يقومون بالجهاد كما ينبغي، ويسعون لنيل رضوان الله حق السعي، سنكون معهم ونكتب لهم النجاح في كل موطن.

وهذا يعني أن الذين يسعون لنيل رضا الله تعالى ولكن لا تأتي مساعيهم بالنتيجة المرجوة، فعليهم أن يعرفوا أن هناك خللاً ما في أعمالهم يحول دون فوزهم بقرب الله ونصرته. فعليهم أن يهتموا بإصلاح أنفسهم لأنهم لا يقومون بأعمال المحسنين، بدلاً من أن يتّهموا الله تعالى بعدم العناية بهم، إذ إن الله تعالى صادق الوعد لا يكذب ولا يخلف وعده أبدًا، لكنهم هم الذين يكذبون حيث يدّعون حبَّ الله تعالى بدون أن يُحدثوا في أنفسهم تغيرًا طيبًا بحسب دعواهم.

ورد في الحديث أن شخصًا جاء النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، إن أخي مصاب بالإسهال. وبما أن الله تعالى قال في وصف العسل في القرآن الكريم: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾(النحل:٧٠)، فأمره النبي ﷺ أن يطعم أخاه العسل، مع أن العسل مُسهِل وليس مُمسكًا بحسب التجارب الطبية. فذهب الرجل وأطعم أخاه العسل، فازداد مرضه. فرجع السائل إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، إن مرض أخي قد ازداد؟ فقال النبي ﷺ: ارجعْ وأطعِمْه العسل. فرجع وأطعمه المزيد من العسل، فازداد مرضه. فرجع إلى النبي ﷺ وأخبره، فقال النبي ﷺ: إن بطن أخيك يكذب والله لا يكذب. اذهبْ وأطعمْه العسل، فذهب وأطعمه العسل. فازداد إسهاله وخرجتْ من بطنه سُدّةٌ وتوقَّفَ إسهاله. (البخاري: كتاب الطب، الدواء بالعسل)

فإذا لم تأت جهودنا بالنتيجة المنشودة فعلينا أن نتهم أنفسنا ونقول لم نعمل نحن بحسب الشروط التي وضعها الله تعالى لقربه، وإلا فإن الله صادق في وعده. لو

عملنا بحسب الشروط التي وضعها الله تعالى و لم نبرح ثابتين على الإيمان بقوة رغم عواصف الابتلاء والاختبار ضاربين أروع أمثلة الإخلاص والفداء ببذل النفس والنفيس لنـــزل الله تعالى من السماء لنصرتنا، وحملنا في حضنه كطفل حبيب مدلل.